آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة التاسعة عشرة، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٧ هـ .ق، ٤٥ – ٧١

دراسة تناسب السياق في التقابلات الدلالية في الجزء الثلاثين من *القرآن الكريم*

محمد صالح شريف عسكري*
سودابه مظفري**، **بهمن هاديلو*****

الملخص

يتناول هذا المقال موضوع التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم من خلال أبعاده الوظيفية، وتناسبه مع السياقات المختلفة التي أحاطت به؛ بما أنّ القرآن الكريم منزل من الله لهداية الناس، وأنّ الهداية تتطلب تنويع الخطاب، واستخدام الأساليب البيانية، وفقاً لمقتضيات أحوال المخاطبين، والظروف الزمكانية.ولما كان اسلوب التقابل الدلالي نوعاً من الأساليب البيانية، وله القدح الأوفى في التأثير على المتلقي، والدور الفعّال في عرض المفاهيم؛ تعويلاً على قول المحققين «الأشياء تُعرف بأضدادها» ونظراً لاستخدامه في أغلب السور المباركة جاء هذا البحث ليكشف عن مدى استخدامه في الجزء الثلاثين، وتناسبه مع السياقات التي اشتملت عليه؛ وللإجابة على الأسئلة المتعلقة بأنواعه المستخدمة، وتناسبه السياقي، ومعطياته الدلالية. ومن النتائج التي أفرزها البحث: أنّ هذا الجزء المبارك، قد اشتمل على التقابل الدلالي، و احتوى على عدد من أنواعه، كما خلّص إلى أنّ جمال التقابل الدلالي لا يقف على الصورة اللفظية بل له

* الأستاذ المشارک في فرع اللغة العربية و آدابها، بجامعة الخوارزمي،طهران، ايران، Sharif-asksri@khu.ac.ir
** الأستاذة المساعدة في فرع اللغة العربية و آدابها، بجامعة الخوارزمي،طهران، ايران، Mozaffari-arabic@yahoo.com
*** الأستاذ المساعد في فرع اللغة العربية و آدابها، بجامعة العلوم و معارف القرآن الكريم (الكاتب المسؤول)، قم، ايران، hadiloo63@gmail.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٧/١٧، تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/٢٨

قيمته المعنوية في النص و أنّ هذا الأسلوب يتناسب مع حاجة الإنسان إلى معرفة الحقائق بأجلى صورها، لأن التقابل الدلالي يعرض الأمر بصورتين مختلفتين أمام البصر والبصيرة ، وكان للتناسب السياقي سهم وافر في ذلك.أيضا تشير نتائج هذا البحث أنّ التقابل ليس فنا تجريديا لذاته وإنما جزء من بناء النص له أهدافه و دلالاته و فاعليته و لا سيّما في النص القرآني حيث وظّف لخلق الصور و الموسيقى و تداعي المعاني و اغراء المتلقي.

الكلمات الرئيسة: القرآن الكريم؛ الجزء الثلاثون؛ التقابل الدلالي؛ التناسب السياقي.

١. المقدمة

إنّه مما لا شكّ فيه بأّننا لن نجد سبيلاً إلى معرفة مضمون القرآن، وفهم معانيه فهما جيِّدا صحيحا إلّا بعد معرفة معاني مفرداته وجمله لغوياً وبلاغياً. والقرآن الكريم كان –وسيظلّ– معيناً لا ينضب أبداً للإعجاز البياني والجمال الادبي بابعاده المختلفة، ومهما توالت الدراسات البلاغية و تعاضدت الجهود في سبر أغواره لغته و بلاغته، لا تصل إلّا إلى نزرٍ يسيرٍ منه.

إنَّ التقابل أسلوب في التعبير يقوم على مبدأ إقامة تضادّ بين الألفاظ والمعاني والأفكار والصور تحقيقاً لغايات بلاغية وقيم فكرية ... و يعد من الأساليب البارزة التي يجيء الاعتماد عليها عن قصد، وله حضور مميز و هيمنة فائقة على المتلقي. و بعدُ فهو من أكثر البنى انتشاراً في الخطاب الأدبي بصورة عامة، فضلا عن القرآن الكريم، حتى يمكن القول بأنَّه لا يخلو منه نص أدبي رفيع، يوظف في سياقه التقابل لإنتاج الدلالة.(عبدالمطلب، ١٩٩٧: ٣٥٤)

وللتقابل أنواع عديدة من اللفظ وصور مختلفة من التعبير وردت في دراسات القدامى والمحدثين، غير أنَّ الحديث عن التقابل وأنواعه يقودنا إلى الحديث عن أسماء وتراكيب لمفاهيم تكاد تصب في مجرى واحد، فهي جميعا –بالرغم من فروقها الدلالية– تتحدث عن اجتماع شيئين أو مفهومين متقابلين كالأبيض والأسود، والحق والباطل، والأول والآخر.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنَّها جميعا أيضاً تلتقى عند هدف واحد، ألا وهو الكشف والبيان عن أمور باتت خفية على الأبصار والبصائر ؛ كما لا نبالغ اذا قلنا أنَّ هذا الاسلوب البياني البديع الذي ندعوه « التقابل الدلالي» بانواعه المختلفة كان ولايزال السيف القاطع الذي يشهره الأدب الرفيع ومنها الأدب القرآني ، وهو أرفعها، كلما احتدمت معارك الهدى والضلال والحق والباطل؛ لما له من فاعلية عالية في إجلاء الحقائق وتثبيت الحقوق خاصة إذا أمعن النظر في تناسب السياقات التي احتوت التقابلات الدلالية.باعتبار أنَّ القرآن الكريم بعضه يفسر بعضاً؛ ولأنَّ هذا الاسلوب البياني الساطع —وهو السبب الأهم- يتناغم مع الفطرة البشرية السليمة العطشى الى معرفة الحقائق باجلى صورها، وأوضح معانيها ومصاديقها. فالفطرة البشرية النقية، تودُ الإنصات الى كل لغة وصوت يجلي لها الحقيقة، ويهب لها الوضوح.

ولأجل هذا أحبَ الانسان ضوءَ الشمس ونورَ الصباح و الليلةَ المقمرة التي تبدّد الظلام وتزيح الخفاء؛ ولأجل هذا أيضاً نجد في القرآن الكريم، كتاب الله العزيز، عناية بالغة باسلوب التقابل الدلالي، حيث تكاد أنْ لا تخلو منه سورة من سوره المباركة، لأنَّ القرآن المجيد تكفل بهداية البشرية، منذ بزغ فجر الاسلام الى قيام الساعة، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، فكانت العناية بكل اسلوب ناجع وطريقة مثلى. وتاسيساً على هذه الرؤية الواضحة وقع الاختيار منا لدراسة التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

ولهذا — حسب علمنا- حظى مبحث التقابل الدلالي لدى الباحثين، باهتمام بالغ، وبصورة خاصة في القرآن الكريم، وظهرت حوله دراسات قيمة؛ جديرة بالتقدير. وهذه المقالة جهد متواضع يراد به الكشف عن التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين، ضمن سياقتها المختلفة، آملين أن نقف في ثناياه على أنواعه ومجالات توظيفه، ومعطياته، ومعرفة جانب من جمالياته.

وتحاول هذه الدراسة، بالاعتماد على المنهج الوصفي — التحليلي، معالجة السؤالين التاليين:

١. كيف تتسبب التقابلات المستخدمة التناسب السياقي في الجزء؟

٢. ماهو معطيات التقابل وفاعليته في الجزء؟

الفرضية التي يتمحور حولها هذالبحث هي أنّ التقابل الدلالي له دور هام في ايجاد التناسب السياقي في الجزء الأخير و أيضا للتقابل الدلالي فاعليته الخاصة به كخلق التصوير، والموسيقى، تداعي المعاني و اغراء المخاطب.

ويتناول البحث التقابل في الجز الثلاثين من القرآن الكريم، ويهدف إلى الكشف أنواع التقابل فيه و معرفة التناسب السياقي في تقابلات الجزء و يسعى إلى الإطلاع على معطيات التقابل و فاعليته في الجزء.

٢. خلفية البحث

ظهرت بحوث قيمة حول التقابل الدلالي في مجالات عديدة من نصوص الادب العربي، وخاصة في سور القرآن الكريم، باعتباره النص الأسمى؛ غير أنّ هذه البحوث القيمة لم تفرد للسياق وتناسبه جانباً خاصاً به، فكان منها كتب ومقالات:

الكتب:

التقابل الدلالي في القرآن الكريم، تأليف منال صلاح الدين الصفار؛ والتقابل الجمالي في النص القرآني، للدكتور حسين جمعة، ورسالة ماجستير، عنوانها «التقابل الدلالي في القرآن الكريم (الاجزاء العشر الاخيرة نموذجاً) » أعدتها مريم زارع في جامعة الخوارزمي بطهران سنة ١٣٩٤ هـ.ش.

الرسائل:

أما من الرسائل التي تطرقت إلى التقابل في القرآن فهي رسالة تحت عنوان«التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم-دراسة اسلوبية-» بقلم الطالب عماري عز الدين و بإشراف الدكتور حجيج معمر في جامعةالحاج لخضر باتنة.

أما المقالات فهي:

-«التقابل اللفظي في القرآن الكريم »، للدكتور يونس عبد مرزوك، نشرته مجلة جامعة الأنبار بالعراق.

– «التقابل المكاني الأخروي في سورة الواقعة» مقالة للكاتبة أسماء سعود أدهام الخطاب، طبعت في مجلة آداب الرافدين ٢٠٠٧م.

– «التقابل في الصحيفة السجادية وأثره في الأنسجام» بقلم مجيد محمدي بايزيدي وزميليه، نشرته مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، بايران خريف ١٣٩٢.

وقبل أن ندخل إلى صلب الموضوع، من المناسب أن نلقي الضوء على المعنى اللغوي و الإصطلاحي للتقابل الدلالي:

٣. مفهوم التقابل

١.٣ في اللغة

« المقابلة: المواجهة والتقابل مثله» (جوهري، ١٤٠٤: ج٥/١٧٩٧).

ورد منه في القرآن الكريم بالمعنى اللغوي في قوله تعالى في وصف أهل الجنّة:« إخواناً عَلَى سُرُرٍ متقابلين» (الحجر: ٤٧).

يقول الخليل (ت١٧٥ هـ): « و القِبَل: الطاقة، تقول: لا قبل لهم، و في معنى آخر هو التلقاء، تقول: لقيته قبلاً أي مواجهة» (الفراهيدي، بلاتا: ج٥/ ١٦٦).

وفي المحكم و المحيط الأعظم في اللغة يقول ابن سيده (ت٤٥٨هـ):« وقابل الشيء بالشيء مقابلة، وقبالا: عارضه... و تقابل القوم: استقبل بعضهم بعضا» (المرسي، ٢٠٠٠: ج٦/٤٢٩).

و في لسان العرب:«المقابلة: المواجهة، و التقابل مثله. وهو قبالک وقبالتک أي تجاهک» (ابن منظور،١٩٩٧: ج١١/٥٤٠). مما تقدم عرضه، يتبين بأنّ معنى كلمة «التقابل» في إطاره العام هو المواجهة.

٢.٣ في الإصطلاح

التقابل أو المقابلة في إصطلاح علماء البلاغة: أن يؤتى في الأسلوب بمعنيين أو أكثر، ثمّ يؤتى بما يقابل ذلک على الترتيب، موفراً أقصى طاقات التضاد الدلالي. ويدل على ذلك أيضاً وزن التفاعل الذي يدل على المشاركة بين اثنين. وفي ذلك يقولون:

أ- أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)

المقابلة «هو إيراد الكلام، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى و اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة» (العسكري، ١٩٨٦: ٣٣٧).

ب- سراج الدين السّكاكي(ت٦٢٦هـ):

ويعتبر المقابلة من المحسنات المعنوية، فقال في (مفتاح العلوم): « وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما»(السكاكي، بلاتا: ١٧٩).

ج- الخطيب القزويني(٧٣٩هـ):

وقد أدخلها في عموم المطابقة و عرّفها بقوله:«أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثمّ بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب و المراد بالتوافق خلاف التقابل» (القزويني، بلاتا: ١٩٣).

د- ابن رشيق القيرواني:

عرف القيرواني المقابلة بقوله: «و أصلها ترتيب الكلام على ما يجب فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً و آخره ما يليق به آخراً، ويأتي في الموافق بما يوافقه و في المخالف بما يخالفه وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة» (القيرواني، ١٩٧٢: ج٢/ ٥).

والتقابل عند المحدثين:

إنّ أسلوب التقابل كما رأيناه عند القدماء لم يخرج عندهم عن إطار الطباق و المقابلة، والى ذلك يذهب جمع من المحدثين، منهم الدكتور أحمد الجنابي الذي يعرفه بأنّه: «كل كلمتين تحمل إحداهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى» (العبيدي، ١٩٨٩: ٥٠).

أما مصطلح «التقابل الدلالي» فهو مصطلح قديم، جديد. قديم لوجود مضامينه، عند المختصين؛ وجديد، لتعريفه ورسم حدوده عند المحدثين من خلال وجوده في اللغات الأخرى. إنّ دراسة التقابل من الناحية الدلالية، ظهرت أوّل مرة في العصر الحديث عند الغربيين، حيث تعتبر دراسة « أوجدن» للتقابل سنة(١٩٣٢) من أهم المحاولات المبكرة في هذا المجال، تبعتها دراسات غربية أخرى مهّدت الطريق ليدرس اللغويون العرب هذه الظاهرة، (أبو خضر، ٢٠٠٤: ٣).

و كانت أولى دراساتهم في هذا المجال بعنوان« ظاهرة التقابل في علم الدلالة» و فيها يؤكّد صاحبها «أحمد نصيف الجنابي» أنّ له الريادة في وضع مصطلح «التقابل» حيث يقول:«بعد قراءة في كتب الدلالة العربية القديمة و الحديثة، لم أجد أحداً بحث ظاهرة التقابل في أي كتاب من الكتب الدلالية. وأستطيع أن أقول مطمئناً: إنّ مصطلح التقابل هو من وضعي» (الجنابي، نفس المصدر: ٥). و التقابل يعتبر في الدراسات الدلالية الحديثة ظاهرة مستقلة كالترادف و غيرها» (المصدر نفسه: ١٢)

والذي نخلص إليه من هذا كلّه أنّ ما سمّي بطباق السلب لا يدخل في مفهوم المقابلة (الجنابي، بلاتا: ١٧).

٤. الدلالة

علم الدلالَة أطلقت عليه عدة أسماء في اللغة الإنجليزية أشهرها هي semantics، أمّا في اللغة العربية فبعضهم يسميه علم الدلالة، وبعضهم يسميه علم المعنى (احمد مختار، ١٩٨٨: ٢٠٩).

ويعرفه بعضهم بأنَّه « العلم الذي يدرس المعنى» أو « ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى» أو «ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى» (احمد مختار، ١٩٨٨: ١١).

أما الدلالة عند البلاغيين، فهو«كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والأوّل الدالُّ و الثاني المدلول» (التفتازاني، بلاتا: ٤).

٥. التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين، في رحاب التناسب السياقي

١.٥ التقابل الإصطلاحي

ويراد به التقابل أو المقابلة عند البلاغيين و هو: وجود لفظتين تحمل إحداهما معنى ضد المعنى الذي تحمله الأخرى.

و من أمثلة هذا التقابل في الجزء الثلاثين هي:

١. « وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» (الفجر:٣)

تم التقابل بين «الشفع و الوتر». الشفعُ ضمُّ الشيء إلى مثله، يقابله الوتر و هو في العدد خلافُ الشّفعِ. قيل الشفعُ المخلوقاتُ مِن حيث إنّها مُرَكباتٌ.(الراغب الأصفهاني، دت: ج١/ ٤٥٧) والوترُ هو اللهُ من حيث إنّ له الوَحدَةَ مِن كلِّ وَجهٍ، وقيلَ الشفعُ يوم النحر من حيث إنَّ له نظيراً يليه، والوتر يوم عرفة (الراغب الأصفهاني، دت: ج١/ ٤٥٧).

فالتناسب والتناسق محسوس بين الأقسام المختلفة التي بداتها السورة المباركة، حيث شملت الزمان الثابت (والفجر، وليالٍ عشرْ) ثم القسم بالشفع والوتر، إذ لا شيئ في الوجود الّا شفع أو وتر، ثم القسم بالزمن المتحرك (والليل إذا يسر)، وهذه كلها تستحضر قدرة الخالق الجبار – جلَّ جلاله– ثم أنَّ هذه الأقسام التي كادت أنْ تشمل كل شيئ تتناسب مع السؤال التالي (هل في ذلك قسمٌ لذي حجر) وهذا التناسب نفسه، هو الذي يهيئ المخاطب لتقبل المعطيات العظيمة التي زخرت بها سورة الفجر.

٢. «وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى» (الليل:١٣)

حينما نتأمل في هذه الآية الشريفة نجد التقديم والتأخير بين العناصر المتقابلة، ونسأل لأي سبب قدّم لفظ الآخرة على الأولى؟ مع أنَ (الأولى) يجب أن تقدم على (الآخرة) وفقاً للترتِب الزمني.

والتقديم والتأخير من مجالات السبر البلاغي في معاني النحو، وأمّا توظيف هذا النوع من المقابلة في القرآن الكريم، فلأسباب سياقية عديدة؛ أهمّها أن يكون التقديم لأجل العناية

بالمقدّم والإهتمام به، أو أن يكون مراعاة للمقام الذي يستدعي ذلک، طلباً للتناسب بين اللفظ والمعنى.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعي جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله فنري التعبير منسقا متناسقا مع غِيره من التعبيرات كأنَّه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.(السامرائي ، ٢٠٠٦: ٥٣)

وقد تم تقديم «الآخرة» على«الأولى» في هذه الآية؛ لأنها تتناسب وقوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» (الليل:٥-٧) وقوله تعالى: « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل:٧-١٠)، ذلک أن المعطى المتقى يريد الآخرة فيقول الله له:إنَّ لنا الآخرة، والبخيل المستغني يريد الدنيا، فيقول الله له: إنّ لنا الدنيا. فمن أرادهما أو أراد إحداهما فليطلبهما منه تعالى وليسلک سبيل طاعته... وقدّم (الآخرة) لتقدم طالبها، و هو قوله: « فأمّا مَن أعطى واتّقَى... » وأخَّر (الأولى) لتأخر طالبها و هو قوله: «و أمّا مَن بَخِل واستغنَى... » (السامرائي، ٢٠٠٢: ج١/ ١٣٨).

٣. « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ» (الإنفطار: ٥).

وقع التقابل الاصطلاحي بين فعلى« قدّمت و أخّرت».

والشواهد التي مرت من تقابل التضاد، و من خصائصه هي:

أ) أن نفي أحد الأزواج المتضادة يتضمن تأكيد الآخر، و كذلك تأكيد أحدهما يتضمن نفي الآخر.

ب) يقوم على ثنائية التضاد؛ فهو يقع بين طرفين نقيضين فقط، لا يقابل بثالث(لاينز،١٩٨٠: ٩٥-١١٠).

٤. « وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ» (التكوير: ١٢-١٣).

التقابل في الآية وقع بين كلمتي« الجحيم والجنّة»، الجحمةُ شدّةُ تأجّج النّارِ ومنهُ الجحيمُ(الازهري ١٠٢\٤). الجنَّة الحديقة ذات النخل و الشجر و البستان و دار النعيم في الآخرة (الراغب الاصفهاني ٩٦).

كما نشاهد في الآية الشريفة، بنية التقابل فيها تكون على طريق التضاد المعنوي دون اللفظي، و هو يتشكل من كلمتين، بحيث تقابل فيه إحداهما الأخرى من جهة التضاد في المعنى. إنَّ الطرف الأول من التقابل في الآية الكريمة كما ذكرنا هو كلمة «الجحيم»، و الطرف الثاني منه هو كلمة «الأرض»، والعلاقة التي نلحظها بينهما هي علاقة التنافر و ليست علاقة التضاد.

تَشكلَ بناء التقابل في هذه الآية من مقابلين و سياقين، فالطرف الأول من التقابل يناسب كلمة «الجحيم» والطرف الثاني منه –يناسب كلمة « الجنّة» – السياق الأول الذي ضمَّ كلمة «سُعّرت »، والسياق الثاني «أُزلِفَت».

٥. « إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى» (الأعلى:٧).

كما نرى في الآية الشريفة، تمَّ التقابل بين الجهر و ما يخفى، و فالجهر اسمٌ و يخفى فعلٌ، لكن «ما» قبل يخفى موصولة، ويؤوَّل بالمصدر فيكون تقديره يعلم الجهرَ و المخفي. والجهر في اللغة، يقال لظهور الشيء بإفراط حاسّة البصر والسمع (الراغب الاصفهاني، نفس المصدر: ج١/ ٢٠٨).

والخفى يقال: خَفى الشيء، خُفيَةً استَتَر، والخفاء ما يستتر به(المصدر نفسه: ٢٨٩).

و جديرٌ بالذكر بأنّ الخلاف بين كلمتى الجهر و يخفى، يكون فى المعنى الدلالى المنطوى فى الإسم و الفعل. الإنسان يخفى دائماً أعماله من الآخرين و الدوام هو المعنى الذى فى الجملة الفعلية.وجمالية هذا التقابل تظهر فى تناسبه مع الفطرة البشرية التى فطرها الخالق العلام.

٦. «ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا» (الأعلى:١٣).

تَمَّ التقابل الإصطلاحي بين فعلى «يموت و يحيى» والتقابل بين الحياة و الموت يمثل علاقة دلالية، و من جانب آخر يمثل آصرة وجودية، محسوسة لدى المخاطب الأشقى الذي لا يتعظ.

٧. « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» (الشرح:٦).

تَمَّ التقابل بين العسر و هو ضنک العيش و السير هو ضدّ العسر بمعنى الفرج .وجماليته وفاعليته تظهر في تناسبه مع طبيعة الأنسان، الذي يتأرجح بين العسر واليسر،مدة عمره، شاء أم أبى؛ ليكون هذا التقابل الذي يعده اليسر بعد العسر بلسماً، لما يعاني من تباريح العسر؛ خاصة إذا كان هذا الوعد صادقاً، وهو صادق لا محالة؛ لأنَّه من لدن الخالق القادر العلام. ولهذا كان القرآن الكريم شفاءً للصدور وذكراً مُطَمئناً للنفوس.

٨. « وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى» (الضحى:٧).

في الآية الشريفة، تم التقابل بين« ضالّاً و هدى»، الضلالُ العُدُولُ عن الطّريق المستقيم و يُضادّهُ الهداية. ويقال الضلالُ لكلّ عدولٍ عن المنهج عَمداً كانَ أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً (الراغب الاصفهاني، نفس المصدر: ٢٩٧). التقابل بين الهدى والضلال يمثل علاقة دلالية و آصرة ايمانية.

٩. « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » (الطارق: ١١-١٢).

في هذه الآية الشريفة التقابل وقع بين «السماء و الأرض» لكن بنية التقابل فيها التضاد المعنوي دون اللفظي، و هو تقابل يتشكل من كلمتين، بحيث تقابل فيه إحداهما الأخرى من جهة التضاد في المعنى، وهذا التقابل إمَّا أنَّه يتشكل من تضاد إحد الكلمتين مع معنى الكلمة الأخرى، أو من تضاد معنيي الكلمتين معا. ومع تدقيق النظر في الآية المذكورة نجد أنّ التقابل فيها القائم على الجمع بين معنيي الكلمتين. كما ذكرنا آنفا، إنَّ الطرف الأول من التقابل في الآية الكريمة هو كلمة«السماء» و الطرف الثاني منه هو كلمة«الأرض»، والعلاقة التي نلحظها بينهما هي علاقة التنافر وليست علاقة التضاد، وهذه الأخيرة تحدث بين الكلمة الأولى الذي هو«فوق» ومعنى الكلمة الثانية هو« تحت». والتناسب في الآية

المباركة قائم بين السماء التي منها الرجع، والأرض التي منها الصدع، فكل منهما لازم لدورة الحياة، والمشهد المتقابل يجسد للعيان آية من آيات الله للناس، كي يزدادوا يماناً مع إيمانهم. وهذا هو من جملة عطاء تقابلات القرآن الكريم؛ لأنَّه كتاب هداية.

١٠. «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» (القارعة:٦-٩).

الخَفَّةُ و الخِفّةُ: ضِدُّ الثِّقَلِ و الرُّجُوحِ، يكون في الجسم و العقلِ و العملِ. خَفَّ يَخِفُّ خَفّاً و خِفَّةً: صار خَفِيفاً، فهو خَفِيفٌ و خُفافٌ، بالضم و قيل: الخَفِيفُ في الجسم، و الخُفَاف في التَّوَقُّد و الذكاء(ابن منظور: ج٧٩/٩).

معنا خفّ في هذه الآية إشارة إلى قلة الأعمال الصالحة. في الآية الشريفة تمّ التقابل بين«خفّت وثقلت»، ويتشكل بناء التقابل في هذه الآية من مقابلين و سياقين، بحيث أنَّ المقابل الأول تبعه السياق الأول و بعده المقابل الثاني تبعه السياق الثاني. إنَّ الطرف الأول من التقابل هو يناسب كلمة« ثقلت» وبينه و بين الطرف الثاني منه مناسبة كلمة«خفّت» — السياق الأول الذي هو: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ»، وينتهي البناء بالسياق الثاني«فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ».

و ايراد التقابل هنا في الآيات المذكورة لم يكن اعتباطيا إنما كان عن دراية و علم من الله تعالى لما لهذا الأسلوب من أثر في بيان المعنى المراد. على سبيل المثال التقابل بين « ثقلت و خفّت» له أثر ملحوظ في ايصال المعنى، وهو تنبيه القوم وتحذيرهم، بأنَّ طاعة الله وشرائعه تستعقب بالنعم الدائمة و العيشة الراضية، و أنّ معصيته يعقبها عقاب و عذاب.

و إنَّ قيمة التقابل البلاغية من هذا النوع لا تعني الاكتفاء بمجرد الإتيان بلفظين متقابلين معنى، و إنما القيمة البلاغية تكمن في الإتيان بنوع من أنواع البديع الذي يشاركه البهجة و الرونق.

٢.٥ تقابل الجملة

يتحدّد هذا التقابل من خلال مقابلة عناصر بنائية لغوية، و تراتيب تعتمد على علاقات منطقية تقع في إطاري التضاد أو المخالفة، و هذه العلاقات بطبيعة الحال لا تقف وحدها فاعلية في البنية التقابلية و إنما يضاف إليها رصيد كبير من المعاني و المدلولات التي تنتجها عناصر البنية التقابلية(عبدالمطلب، بلاتا: ٤٧).

لهذا النمط من التقابل الدلاليّ فاعلية، و قدرة كبيرة على إبراز المواقف المتعاكسة، والمتناقضة من خلال دلالات الجمل و التراكيب الناتجة عن المادة اللغوية (الدلالات) و المنبثقة من المستوى المعنوي أو المضمون العام، وهذه الدلالات الناتجة ليست هي المعاني التي يكشف عنها المستوى السطحي للسياق، وإنما هي المعاني العميقة المختفية وراءه (القرعان، بلاتا: ١٠).

غالبا ما يقع هذا النوع في نطاق الجوانب العقيدية والفكرية والقيم الدينية الإسلامية ومايضادّها ويقابلها من قيم جاهلية ضالّة.

و من هذا القبيل، جاء في الآيات التالية:

١. «وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى. وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى» (الليل:١-٢)

الليل حين يغشى البسيطة، ويغمرها ويخفيها. والنهار حين يتجلى ويظهر، فيظهر في تجليه كل شيء ويسفر. و هما آنان متقابلان في دورة الفلك، و متقابلان في الصورة، ومتقابلان في الخصائص، ومتقابلان في الآثار(قطب ١٤١٢هـ: ج٦ / ٣٩٢١) و في هذه الآيات البينات ليس الجمال بين مطابقة الليل والنهار بل الجمال و القيمة الفنية تكمن في غشيان الليل مقابل تجلى النهار، و ما يحمل المعنى الاول من شمولية و تناسب في غشيان العيون، الذي يؤدي إلى النعاس فإلى النوم، مقابل انجلاء هذا الليل و انبلاج نهار يجلو الظلمة ويدعو إلى العمل و يدفع إلى الحركة والحياة.(الرازي، ١٩٩٠: ج١٣/ ١٧٩).

٢. « إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (الانفطار:١٣-١٤) التقابل بين

جملتي «إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ» و«إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» بيِّن وواضحٌ.بأنَّه قابل بين الأبرار و النعيم و الفجار والجحيم.

من الأساليب القرآنية المندرجة تحت مسمى باب التقابل هو أسلوب الترغيب والترهيب، وهو أسلوب بارز في القرآن. أسلوب الترغيب والترهيب واضح في الآيتين فبعد أن ذكر سبحانه مصير الأبرار يوم القيامة، أتبع ذلك بذكر مصير الفجّار.

٣. « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل:٥-١٠).

أتى أولاً بالإعطاء، والإتقاء، والتصديق، واليسر، ثم أتى بما يقابلها على الترتيب: البخل والاستغناء، والتكذيب والعسر.

و وجه مقابلة « الاستغناء» للاتقاء: أن معنى «استغني»، زهد فيما عند الله فلم يراقبه، ولم يتقه، أو معناه: استغنى بمتاع الدنيا عن الجنّة فلم يتق الله في عمله، فيكون الإستغناء حينئذ مستلزماً لعدم الاتقاء المقابل للاتقاء. وفي هذا دليل على أنَّ المقابلة قد تتركب من الطباق و قد تتركب مما هو ملحق بالطباق كما هنا في المقابلة الاتقاء بالاستغناء، فهو من قبيل الملحق بالطباق (غريب علاّم، ١٩٩٧: ١٧٢).

٤. «فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» (الفجر: ١٥-١٦).

تمَّ التقابل بين الجملتين المقابلين و الطرف الأول من التقابل هو جملة«فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» أي الإنسان إذا ما اختبره ربه بالنعمة، وبسط له رزقه، وجعله في أطيب عيش، فيظن أن ذلك لكرامته عند ربه، يقول: ربي أكرمن.

و الطرف الثاني يقابل ذلک المعنى و هو جملة«وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» أي إذا ما اختبره، فضيَّق عليه رزقه، فيظن أن ذلك لهوانه على الله، فيقول: ربي أهانن.

٥. « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» (البينة: ٦-٧).

وقع التقابل بين الفريقين الذين كفروا من اليهود و النصارى و المشركين و الذين صدّقوا الله و اتبعوا الرسول. إنّ كلمتي«كفروا و شرّ» في الطرف الأول من المقابلة«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» يقابلان كلمتي «آمنوا و خير» في الطرف الثاني« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».

لقد كان التقابل العقدي المحور الأساس و الموضوع الأكثر أهمية بين موضوعات المقابلة القرآنية و لوضع«الحد الفاصل بين الكفر و الشرك من ناحية و بين الإيمان و الحق و الهدى من ناحية أخرى» (حمدة، ١٩٨٥: ١١٥).

وأجمل ما في المقابلة من قيمة بلاغية، تحقيق ما ينتظره السامع عندما ينتهي الطرف الأول من المقابلة. كما نشاهدها في الآيات المذكورة.

٦. فاعلية التقابل في الجزء الثلاثين

مع أنّ التقابل في مذهب أغلب القدماء محسّن بديعيّ، غير أنّ المتأمّل في دِلالاته و إستخداماته الكثيرة يرى أنّ له أغراضاً أبعد من ذلك، فهو فنّ بلاغيّ، وطريقة في أداء المعنى له آثاره وقيَمته و فاعليته أهمّها هي:

١.٦ التقابل و التصوير: تقابل الصور

يعتبر التصوير في اللغة وجه من أوجه جمالها، وهذا النوع من التعبير عرفه العرب منذ الجاهلية، ويبدو أن للبيئة الطبيعية التي عاشوها، ولدرجة الثقافة التي حصلوها، ولواقع الحالة الاجتماعية فيما بينهم، أثر مباشر في عدم اعتمادهم التصوير قاعدة للتعبير وفي عدم إستفادتهم من الخصائص الفنيّة الذاتيّة للغة العربية.(الخالدي، ١٩٨٨: ٢٣)

وكما أنَّ التصوير الفني في القرآن الكريم وجه من وجوه جماله فهو أيضا وجه آخر يضاف إلى وجوهه المعجزة. يتحدّث سيد قطب في كتابه «التصوير الفني في القرآن» عن الآفاق التي يجب الوصول إليها في دراسة هذا التصوير، منه تلك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات حيث يعمل الخيال في إستحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة.

يرتبط التقابل الصوري بالأساليب البلاغية ولا سيما تلك التي تتكئ على تقنيات المشابهة، والإستعارة، والمجاز، و الكناية، فتعمل على توسيع أفق التلقّى وتنشيط الخيال، وشحن الصورة و رفدها فنياً، فضلاً عن خاصية التركيب التي تجلو العلاقة بين الضّدين بشكل أعمق عبر عملية التقابل الصوريّ الذي يعدّ قوة خلاقة داخل النسيج التصويري، ولاسيما من خلال إندغام المتنافرات والمتناقضات، وتمحورها حول الأطراف المتقابلة المتعاكسة ليجعل الصورة أكثر عمقاً وثراءً (عبدالمنعم، بلاتا: ٣٤٨).

في الحقيقة تقابل الصور هو ما يشكل بجملتين تدلُّ أحدهما على صورة مغايرة (نهر، ٢٠٠٧: ٥٥٣) لقد تعدّدت الصور التي أدَّى التقابل بيانها، فكثيراً ما يكون التقابل هو العنصر الأساسي في بناء الصورة.

يبدو أنَّ أجمل ما قيل في هذا النوع من التقابل يتجلّى في قوله تعالى حيث يقول: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة .وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ. فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ. وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ » (الغاشية:١-١٦).

في هذا التقابل لايظهر التقابل من خلال مفردة معينة، بل تظهر من خلال التقابل التركيب الذي ينتج صورة محدّدة الملامح كما نراه في هذه الآيات الشريفة. يقول سيد قطب: إنّ هذه الآيات نموذج للعذاب الحسّي والنعيم المادي، متقابلين معاً. إنّ الله تعالى بعد أن افتتح السورة بقوله«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة»، أخذ يصوِّر شيئاً من مشاهدها، مشهد أهل النعيم و مشهد أهل العذاب، وهو يعجّل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم؛ فهو أقرب إلى جو «الغاشية» وظلِّها (قطب، نفس المصدر: ج٦/ ٣٨٩٦).

فأمَّا أهل العذاب، فلهم يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلّا الخسارة ،فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً، فهي «عاملة ناصبة» عملت لغِير الله، وتعبت لدنياها، ثمّ وجدت عاقبة العمل والكدّ. ووجدته في الدنيا شقوة لغِير زاد. ووجدته في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب، وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق، ومع هذا الذُل والرهق والألم(تصلي ناراً حاميةً) وتذوقها وتعانيها (المصدر نفسه:٣٨٩٦).

و في الجهة المقابلة «وجوه يبدو فيها النعيم. ويفيض منها الرضى. وجوه تنعم بما تجد، وتحمد بما عملت. فوجدت عقباه خيراً، وتستمع بهذا الشعور الروحي الرفيع. .. ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما الجنة من رخاء ومتاع، ثمّ يصف الجنة و مناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء(في جنّةٍ عاليةٍ) ..وللعلو في الحس وإيقاع خاص.(المصدر نفسه: ٣٨٩٧)

«أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً. وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً .وَيَصْلَى سَعِيراً. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً» (الإنشقاق: ٧-١٣).

في هذه الآيات تتقابل صورتان حاضرتان، صورة الفائز الذي يحمل كتابه بيمينه، وهو فرحان، تقابلها صورة الخاسر الذي أوتي كتابه من وراء ظهره، و هو مشاعر الندم والحسرة أحاطت عليه. أخذ الكتاب باليمين و بالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، و قد يكون تمثيلاً لغويّاً جارياً على إصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشرّ بالشمال أو من وراء الظهر... وسواء كان هذا أو ذاک فالمدلول واحد، وهو لا يستدعي جدلاً يضيع فيه جلال الموقف (قطب، نفس المصدر: ج٦/٣٨٦٧) .

تبدأ الآيات بتصوير المشهد الأول، والذي هو مشهد الناجي في ذلک اليوم العصيب وهو مسرور ويرجع إلى اهله في الجنة. وبعدها تنتقل لتصوير ما يقابله، وهو مشهد ذلک الخاسر المتحسر، وهو عرف أنّه مؤاخذ بسيئاته و أنّ مصيره إلى العذاب.

إنّ القيمة الفنية للمقابلة تكمن فيما يحدثه التضاد من أثر متميز في الدلالة على صور ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ و وجدانه فيتبين ما هو حسن منها و

يفصله عن ضده.(مطلوب، ١٩٨٢: ٤٤٣) فإنّنا نرى في هذه الآيات يخلق القرآن الكريم صورة أدبيةً جميلةً وهي كلّ الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته إلى قرائه أو سامعيه (الشايب، ١٩٦٤: ٢٤٢).

٢.٦ التقابل و الإغراء

تتداعي الدلالات متقابلة، مثيرة في النفس صورة الشي وضدَّه (نهر، نفس المصدر: ٥٥٨) حينما نتأمّل في القرآن الكريم، نجد شواهد كثيرة تطابق مع هذا النوع من التقابل. يمكن أن نعتبر قوله تعالى: «أَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» (النازعات: ٣٧-٤١) من هذا النوع. فالتقابل في هذه الآيات وقعت بين الذين تمرّدوا على أمر الله وفضّلوا الحياة الدنيا على الآخرة، والذين آمنوا ونهوا النفس عن الهوى ومصير كل جماعة منهم ومأواهم. فقد صرّح القرآن الكريم بأنَّ مأوى الذين طغوا هي الجحيم ومأوى الذين آمنوا واتّقوا الله هي الجنة. فدرجات المؤمنين غير أمكنة الكافرين وهكذا تتداعي المعاني التقابلية بوضع قيم الدنيا كلّها في ميزان الله إلى جانب الآخرة.

و هنالك حرّية إنسانية تليق بتكريم اللّه للإنسان. تلك هي حرّية الإنتصار على هوى النفس و الإنطلاق من أسر الشهوة، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرّية الإختيار والتقدير الإنساني. وهنالك حرّية حيوانية، هي هزيمة الإنسان أمام هواه، و عبوديته لشهوته، وإنفلات الزمام من إرادته. وهي حرّية لا يهتف بها إلّا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءً زائفاً من الحريّة! إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى و تهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى. أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته، ويرتد شيئا توقد به النار التي وقودها الناس- من هذا الصنف- و الحجارة! وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء (قطب، نفس المصدر:ج٦/ ٣٨١٩).

في الحقيقة في هذا التقابل بين الفئتين، يفصّل الله تعالى مصير الإنسان و يحذره و يذكره من عواقب أمره. يثير همم الإنسان بأن يختار سبيلاً مستقيماً يؤدى إلى السعادة.

التقابل في النص القرآني يقع بين معانيه كما يقع بين ألفاظه، وهو بين الألفاظ يزيده لذّةً وإثارةً وبين المعاني يزيدها قوّةً ووضوحاً، كما يضفي عليها روعةً وجمالاً، فحازم القرطاجني يرى أنَّ «للنفوس في تقارن المتماثلات و تشافعها و المتشابهات والمتضادات وما جرى مجراهما تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أملك للنفس وأمكن منها فهو أشدّ تحريكا لها. ولذلك أيضا مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً» (القرطاجني، ١٩٨١: ٤٤-٤٥).

٣.٦ التقابل و الموسيقى

إنَّ علم الدلالة هو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى، كما يعني علم الدلالة أيضاً بالبنية الدلالية للّغة من حيث العلاقات الترابطية ومن ثم يوجد نوعين من علم الدلالة يتّصلان ببعضهما إتصالاً وثيقاً، فنوع يتعلّق بالبنية التكوينية الدلالية، وآخر يتعلق بمعنى هذه البنية. فإذا كان ذلك كذلك، فإنَّ بعض المحسنات قائمة على توظيف المعنى من حيث الإيقاع و التنغيم الصوتي و الموسيقى الذي ينتج هذه المحسنات في الجملة الفنية شعراً ونثراً، معتمدة في ذلك على التقابل و التوازي المعنوي عن طريق التضاد بين الالفاظ و الجمل، وما ينتج عن ذلك من أخيلة وصور شعريه مصحوبة بالتوزيع و التنسيق الصوتي واللفظي الايقاعي فيكون التحسين تحسيناً في اللفظ والمعنى معاً.(حسن الشيخ، ١٩٩٩: ٥٠) فلذلك يلعب التقابل دوراً هاماً في إحداث نوع من التوازي الذي تتمّ أجزاء كل جملة في هذا البناء على نحو معين فتؤدى إلى نوع من الإيقاع المنسجم الذي يساعد على تكوين التعبير كلّه.

والتقابل بأثره الإيقاعي لا يأتي وحده، بل يأتي متضافراً مع إيقاع التشابه، فيولّدان أثراً قوياً في النفس، وقد أشار إليهما حازم القرطاجني(ت٦٨٤هـ) بقوله: «فإنَّ للنفوس في تقارن المتماثلات و تشافعهما و المتشابهات و المتضادات وما جرى مجراها تحريكاً و إيلاعا بالإنفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأنّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين و المتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلک لها في شيء واحدٍ، وكذلک مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن ممّا يزيد غبطة بالواحد و تخلّيا عن الآخر لتبيين حال الضد بالمثول إزاء ضده، فلذلک كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً...» (القرطاجني، ٢٠٠٧: ٤٤-٤٥).

نجد التقابل في سورة الإنفطار مثل قوله تعالى « إِنَّ الأَبرارَ لفِي نَعيمٍ و إِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحيمٍ» (١٣-١٤) وقد حملت هذه الآيات إضافة إلى التقابل، صفة الترصيع ويظهر الإنسجام في هاتين الآيتين من خلال «تتبع الأصوات في مواقعها، والنظر إلى الصوت ومقابلاته، فيبدو في الآية الكلمات القصيرة وبعض الكلمات الطويلة، كما تتمثل فيها الحركات القصيرة ومعها الحركات الطويلة، ونلاحظ في ذلک نوعاً من التوازن»(عثمان، ٢٠٠١: ١٠).

و من السمات الواضحة للغة القرآنية هي تكرار القالب الصوتي للتعبير الذي توضع فيه الألفاظ في نظام دقيق بحيث نجد في تكرار هذه القوالب للأذن لذّة ومتعة قريبة للنفس، وهذا التكرار يجعله سريع العلوق بالقلب، سهلاً في حفظه وترداده (جمعة، ٢٠٠٣: ١٦٥). ومن مثلها هذه الآيات القرآنية التالية: «إِنَّ الأَبرارَ لفِي نَعيمٍ و إِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحيمٍ» (الانفطار:١٣-١٤)

يتحدث كمال عبد أحمد غنيم عن النغمة الموسيقية فيقول:«إنّ لها أثراً عميقاً في وجدان الناس، ودوراً عظيماً في إثارة مشاعرهم، ونقلهم إلى إجواء جديدة، و قدرة فائقة على مخاطبة إرواحهم وعقولهم، حيث تكمن هذه الخاصية في الموسيقى التي تنساب إنغامها بألحان ذات دلالة توقظ إحساس المتلقي وتخلق لدية ملامح عالم النص، وتشعره بالمتعة الفنية التي يتذوقها من خلال تجاوب النغم مع الفكرة، وما لذلک من تأثيرات داخلية» (أحمد غنيم، ٢٠٠٤: ٣٠٣).

٣.٦ التقابل و تداعي المعاني

لتداعي المعاني أسباب و عوامل عدّة، من أهمّها التقابل، لأنّ التقابل لا ينفكّ من دلالة الإلتزام ودلالة الإلتزام لا تنفكُّ من تداعي المعاني، لأنَّ فيه إستحضار صورة المعنى في الذهن بغير اللفظ الموضوع له، وهذا هو تداعي المعاني، ومن روعة أثر تداعي المعاني في التقابل هو سير المعنى من المتكلم إلى المخاطب قبل سيره بلفظه الموضوع له ثمّ أعادة المعنى إلى المخاطب باللفظ الموضوع له.

ومن أجمل ما في المقابلة من قيمة بلاغية ،تحقيق ما ينتظره السامع عندما ينتهي الطرف الأول من المقابلة فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: « و جعلنا الليل لباساً» (نبأ:١٠) يتوقع القارئ أو السامع أن يكون في مقابل ذلک «وجعلنا النهار معاشاً» (نبأ:١١) وتؤدي المقابلة دوراكبيرا في الأسلوب القرآني، فهي من الأساليب القادرة على مخاطبة قوى النفس جميعها، وذلك بتحريك قوة العقل، وتنشيط قوة الشعور، وتفعيل غريزة حبّ الاستطلاع، وذلك لتلبية حاجات النفس المتطلعة دائما إلى المتعة الوجدانية، والنكتة العقلية، والراغبة في الأسلوب الجميل، والمعنى العميق.

و المقابلة بإنسجامها مع بقية الأساليب- و بخاصة أسلوب التصوير- تضفي جمالا فنّيا خاصّا على التعبير، ومنشأ هذا الجمال وجود الصور المتقابلة، والألوان المتباينة، والنماذج البشرية المختلفة، والحقائق الدينية المتناقضة، وغير ذلك من الأشياء المتضادة في طبائعها وأشكالها.

إنّ سرّ بلاغة كل من الطباق والمقابلة إنّما هي تداعي المعاني، فالضد أو المقابل يجلب إلى الذهن ضده، أو مقابله .. فإذا كتب الأديب أو نطق، أحد المتساندين وقع مقابلة في ذهن متلقي في الأدب، قبل أن يقرأه أو يسمعه، وبهذا يتحول متلقي الأدب إلى مرسل له التقابل في الواقع نوع من العلاقة بين المعاني، بل و ربما كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى، فمجرّد ذكر معنى من المعاني، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن، فعلاقة الضدَية من أوضح الأشياء في تداعي المعاني (أنس، ٢٠٠٣: ٢٠٧).

في الحقيقة إنّ القرآن الكريم في تقابلاته الجمالية « يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية» (قطب، ١٩٦٦: ١٤١).

٧. نظرة إحصائية

بما أنّ علم الإحصاء علم تطبيقي لا يكاد يستغني عنه باحث في أي مجال من مجالات الحياة. ودلالات نتائجه يمكن أن تفيد في إيضاح وتأكيد كثير من الظواهر وهو يساعد في إستنتاج علاقات ودوال تغيب عن الملاحظة عادة فلذلک في ضوء دراستنا للجزء الثلاثين نورد المقابلات المستعملة في الجدول الآتية:

مقابلة إثنين بإثنين	النبأ	١٠-١١	١
مقابلة إثنين بإثنين	النازعات	٢٩	١
مقابلة إثنين بإثنين	عبس	٥-١٠، ٣٨-٤١	٢
مقابلة إثنين بإثنين	تكوير	١٢-١٣، ١٧-١٨	٢
مقابلة إثنين بإثنين	انفطار	١٣-١٤	١
مقابلة إثنين بإثنين	مطففين	٢-٣، ٧و١٨	٢
مقابلة ثلاثة بثلاثة	انشقاق	٧-١٣	١
مقابلة إثنين بإثنين	بروج	١٠-١٨	١
المقابلة ثلاثة بثلاثة	غاشيه	٢-١٠	١
مقابلة إثنين بإثنين	فجر	١٥-١٦	١
مقابلة إثنين بإثنين	بلد	١٧-١٩	١
مقابلة إثنين بإثنين	شمس	٩-١٠	١
مقابلة إثنين بإثنين	ليل	١-٢	١
مقابلة أربعة بأربعة	=	٥-١٠	١
مقابلة إثنين بإثنين	بينه	٦-٧	١
مقابلة إثنين بإثنين	زلزله	٧-٨	١
مقابلة إثنين بإثنين	قارعه	٦-٨	١

التقابل الإصطلاحى	نبأ	٣٧	١
التقابل الإصطلاحى	نازعات	٢٥،٤٦	٢
التقابل الإصطلاحى	عبس	٢١-٢٢	١
التقابل الإصطلاحى	انفطار	٥	١
التقابل الإصطلاحى	بروج	١٣	١
التقابل الإصطلاحى	طارق	١١-١٢	١
التقابل الإصطلاحى	اعلى	١٣	١
التقابل الإصطلاحى	=	٧	١
التقابل الإصطلاحى	فجر	٣	١
التقابل الإصطلاحى	ليل	٣، ١٣	٢
التقابل الإصطلاحى	ضحى	٤	١
التقابل الإصطلاحى	شرح	٥، ٦	٢
التقابل الإصطلاحى	قريش	٢	١
التقابل الإصطلاحى	الناس	٦	١

لاحظنا من خلال إحصاؤنا للمقابلة، إنّ المقابلة الإصطلاحي وردت في الجزء الثلاثين ١٧ مرة بينما انّ تقابل الجملة ورد عشرين مرة.

للطباق(التقابل الإصطلاحي) فنا بديعيا خالصا له تأثيره الخاص المتميز، ويتجلّى هذا التأثير في أنّه يجمعه بين الأضداد يخلق صوراً ذهنية متعاكسة يوازن فيما بينهما عقل القارئ ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها و يفصله عن ضده، ومن هنا فإن هذا الفن البديعي يستوي بحد ذاته معرضاً للمعاني الذهنية والنفسية والعقلية المتنافرة فتترک فيالشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن(مطلوب،١٩٨٢: ٤٤٣).

و بهذا الفن البديعي قد أضاف بصمة بلاغية بديعية ذات طابع له تأثيره الخاص في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، كما استطاع أن يخلق لنا صوراً متعاكسة لها آثار في ذهنية القارئ ونفسيته ووجدانه.

لقد كان التقابل العقدي المحور الأساس والموضوع الأكثر أهمية بين موضوعات المقابلة القرآنية وبلاغتها إنما تكون في«وضع الحد الفاصل بين الكفر والشرك من ناحية وبين الإيمان والحق والهدى من ناحية أخرى»(حمدة، ١٩٨٥: ١١٥٠).

و بهذا توثّقت العلاقة بين الدلالة و البلاغة بجمعهما التركيب و التوليد والنص، فإن كان (الطباق و المقابلة) باباً من أبواب البديع ومحسّناً معنوياً عند البلاغيين القدماء، فإنّه عند الدلاليين أحد أنواع نظرية العلاقات، وإبداع من إبداعات التوليد الدلالي، ولا يقف جمال التقابل الدلالي على الصورة اللفظية؛ بل له قيمته المعنوية في النص، حيث تجد تلك الحركة العقلية العنيفة في نظم من المفردات و الجمل المتقابلة، تتقارب ثمّ تتباعد في عرض حركي سريع ومتميز بني على قوة إدراك العقل للشيء بضده، فأنتج بذلك قوالب لفظية جميلة.

٨. النتائج

و تشير نتائج هذا البحث الى النقاط التالية:

إنَّ من أبرز المعطيات العظيمة التي تجلت من خلال توظيف التقابلات الدلالية في جزء الثلاثين، تثبيت المفاهيم والأفكار، التي اشتملت عليها التقابلات بانواعها المختلفة، وحملتها الآيات المباركة من مقاصد وأهداف إرشادية، وعقدية؛ تلك المقاصد التي قدمتها السور بأطباق من جماليات اللفظ وتناسب المعاني، ومن خلال الطباق والمقابلات، بما يتناسب والإعجاز البياني لكتاب الله العزيز — عزَّ اسمه –.

إنّ أسلوب التقابل عند القدماء لم يخرج عندهم عن إطار الطباق والمقابلة، كما كان الغرض من وضعه تحسين الكلام. وإنّ المعاصرين في نظرتهم إلى هذا الأسلوب، لم يأتوا بجديد وفكرة التحسين والمحسن البديعي هي المسيطرة على بحث أصحاب هذه الوجهة.

إنَّ دراسة التقابل من الناحية الدلالية كان أول ظهور لها في العصر الحديث عند الغربيين، والتقابل يعتبر في الدراسات الدلالية الحديثة ظاهرة دلالية مستقلة كالترادف وغيرها.

التقابل لم يكن أسلوباً زخرفياً، زائداً، بل جاء لأغراض دلالية، منسجماً مع السياق النصي، غير أجنبي ولا دخيل عليه. يؤدى التقابل دوراً كبيراً في خلق المشاهد والتصوير وبهذا يؤثّر أثراً بالغاً في المتلقي لأنَّه يوصل مفاهيم القرآن بصورة مجسدة. وأيضا يساعد التقابل في احداث نوع من التوازي الذي ينتنج نوعاً من الإيقاع والموسيقى.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

ابن المعتز(١٩٨٢م). *كتاب البديع*، اعتنى بنشره إغناطيوس كراتشفوفسكي، ط ٣، بيروت: دار المسيرة.

ابن معطى، يحيى (٢٠٠٣م). *البديع في علم البديع*، تحقيق محمد مصطفي أبو شارب، ط١، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر.

ابن منظور(١٩٩٧م). *لسان العرب*، بيروت: دار صادر.

الأزهري ، محمد بن أحمد،(١٤٢١ هـ. ق). تهذيب الغة، دار إحياء التراث العربي،بيروت، ط١.

أبو خضر، سعيد جبر محمد (٢٠٠٤م). *التقابلات الدلالية في العربية و الانجليزية*، ط١، الأردن: عالم الكتب الحديث.

احمد مختار،عمر(١٩٨٨م). *علم الدلالة*، القاهرة: عالم الكتب.

أحمد غنيم، كمال(٢٠٠٤م). *عناصر الابداع الفني في شعر أحمد مطر*، قم :منشورات ناظرين.

أنس، ابراهيم(٢٠٠٣م). *في اللهجات العربية*، مكتبة الانجلو المصرية.

بحيري، سعيد حسن(١٩٩٧م). *علم لغة النص*، ط١، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

الجوهري (١٤٠٤هـ.ق). *الصحاح*، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط ٣، بيروت: دار العلم الملايين.

الجنابي، احمد نصيف(بلاتا). *ظاهرة التقابل في علم الدلالة*، الجامعة المستنصرية: كلية الآداب.

حسن الشيخ، عبدالواحد(١٩٩٩م). *البديع و التوازي*، ط١، مصر: مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية.

الحموي ابن حجة(١٩٨٧م). *خزانة الأدب وغاية الأرب*، شرح عصام شعيتو، بيروت: دار و مكتبة الهلال.

الخالدي ،صلاح عبد الفتاح (١٩٨٨م.). *نظرية التصوير الفني عند سيد قطب*، الجزائر: شركة الشهاب.

الداية، فايز(١٩٩٦م). *علم الدلالة العربي*، ط٢، دمشق: دار الفكر.

الرازي، أبو بكر(١٩٩٠م). *مختار الصحاح*، ضبط وتخريج و تعليق مصطفى ديب البغا، ط٤، الجزائر: دارالهدى.

الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن علي(١٩٩٠م). *التفسير الكبير*، ط١: بيروت، دارالكتب العلمية.

الراغب الاصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد(بلاتا). *مفردات ألفاظ القرآن*، ط١، بيروت: دار القلم.

السامرائي ،فاضل صالح(٢٠٠٦م). *التعبير القرآني*، ط٤، عمان: دار عمار.

السامرائي، فاضل صالح(٢٠٠٢م). *على طريق التفسير البياني*، الإمارات العربية المتحدة: جامعة الشارقة.

السكاكي ،أبويعقوب(بلاتا). *مفتاح العلوم* ، بيروت: دار الكتب العلمية.

الشايب، أحمد(١٩٦٤م) .*أصول النقد الأدبي*، ط٧، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الشيخ، عبد الواحد حسن(١٩٩٩م). *العلاقات الدلالية في التراث العربي دراسة تطبيقية*، ط١، الإسكندرية: مكتبة الإشعاع.

العبيدي ،عبد الكريم محمد حافظ (١٩٨٩م). *ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية*، الجامعة المستنصرية كلية الآداب.

العسكري، ابوهلال(١٩٨٦م). *كتاب الصناعتين الكتابة والشعر*، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبوالفضل إبراهيم، بيروت: منشورات المكتبة العصرية.

عيد، رجاء(بلاتا). *فلسفة البلاغية بين التقنية و التطور*، الاسكندرية: منشأة المعارف.

عبدالمطلب، محمد(بلاتا). *العلامة و العلامية(دراسة في اللغة و الأدب)*، الطبعة الأولى، القاهرة: الوطن العربي للنشر و التوزيع.

عبدالمطلب، محمد(١٩٩٧م). *البلاغةالعربية قراءة أخرى*، ط١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، لو نجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر.

غريب علّام، عبدالعاطي(١٩٩٧م). *دراسات في البلاغية العربية*، بنغازي: منشورات جامعة قار يونس.

غِيري،عبدالعلي الود،(٢٠٠٠م). *اللغة والدّين والهوية*، نيامي: مطبعة النجاح الجديدة.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد(بلاتا). *كتاب العين*، تحقيق مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال.

القرعان، فايز عارف(بلاتا). *التقابل الدلالي*، الأردن: جامعة يرموك.

القرطاجني، حازم(١٩٨١م). منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٢ ، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

القزويني، الخطيب (بلاتا). *الإيضاح في علوم البلاغية*، اعتنى به وراجعه عماد بسيوني زغلول، ط٣، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.

القيرواني، أبو الحسن بن رشيق(١٩٧٢م). *العمدة في محاسن الشعر و أدبه و نقده*، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط٤، بيروت: دار الجيل.

قطب، سيد (١٤١٢هـ.ق)، *في ظلال القرآن*، ط ١٧، بيروت: دار الشروق.

قطب، سيد(١٩٦٦م). *التصوير الفني في القرآن الكريم*، القاهرة.

المرسي، أبو الحسين علي بن إسماعيل بن سيدة (٢٠٠٠م). *المحكم و المحيط الأعظم*، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت: دارالكتب العلمية.

مصطفى إبراهيم / الزيات، أحمد / حامد عبد القادر . محمد النجار، المعجم الوسيط تحقيق / مجمع اللغة العربية، دت.

مطلوب، أحمد (١٩٨٠م). *البلاغية العربية المعاني و البيان و البديع*، ط٢، بغداد: معهد الإنماء العربي.

مطلوب، احمد (١٩٨٧م). *معجم المصطلحات البلاغية و تطورها*، العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي.

مطلوب، أحمد/البصر، كامل حسن (١٩٨٢م). *البلاغة و التطبيق*، ط١، الجمهورية العراقية: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

منقور، عبدالجليل(٢٠٠١م). *علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي*، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

لاينز، جون (١٩٨٠م). *علم الدلالة*، ترجمة: مجيد الماشطة وآخرون ، جامعة البصرة: كلية الآداب.

نهر، هادي(٢٠٠٧م). *علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي*، تقديم علي الحمد، ط١، أربد الأردن: دار الأمل للنشر و التوزيع.

المقالات و الرسائل:

جمعة، ابراهيم (٢٠٠٣م). الإيقاع في القصة القرآنية ، *مجلة موقف الأدبي*، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٣٧٩.

حمدة، محمد علي(١٩٨٥م). القرآن الكريم و استمرارية إعجازه، المجلة الثقافية، العدد٩.

عبدالمنعم ياسين، وسن (٢٠٠٩م). ثنائية التقابل الصوري بين المؤمن و الكافر،مجلة كلية الادآب، جامعةبغداد، العدد٩١،صص٣٣٣-٣٥١.

عثمان، أسامة عبد المالک إبراهيم(٢٠٠١م).ظواهر أسلوبية و فنية في سورة النحل، جامعة النجاح الوطنية، رسالة، ماجستير.